المربيات والمربون في التاريخ الاسلامي

في جزيرة العرب إلى نهاية العصر العباسي

إعداد الأستاذ الدكتور : محمد محمود إدريس
جامعة المنيا ـ جمهورية مصر العربية

الأسرة

هي أساس المجتمع ، فإذا صلحت صلح المجتمع ، وإذا فسدت فسد المجتمع ، والأسرة تتكون من الآباء والأبناء ومن معهم ممن يستعان بهم في المنازل كمربيات أو مربون أو خدم وغيرهم ، وعلى الآباء تربية أبنائهم ، فهم مسئولون عن تربيتهم ، وكل ما يكتسبه الطفل من سلوك من داخل الأسرة بكل افرادها ومعاونيهم ، وما يكتسبه من خارج البيت هو من مقومات شخصيته الاجتماعية لذلك اهتمت المجتمعات عبر العصور بأبنائهم وتربيتهم .

والمجتمع العربي في شبه الجزيرة العربية له تاريخ عريق في اهتمامه بأسرته واهتمام الأسرة بأبنائها منذ قبيل ظهور الإسلام وإلى الوقت الحاضر ، وتجلى ذلك واضحاً في تلك الصفات الحميدة التي ورثها العربي الخلف عن السلف والتي غرسها رب الأسرة في أبنائه وهي روح الانتماء إلى وطنه وعروبته وقبيلته قبيل الإسلام الذي تحول انتماء القبيلة بعد الإسلام إلى إنتماء العربي إلى الإسلام ، فكانت حمية العربي تجاه وطنه وتجاه دينه لاتدانيها حمية ، وكان حرصه على الوفاء لمجتمعه لايعادله وفاء ، واهتمامه بأسرته من أهم عوامل حياته الاجتماعية .

لذلك كانت صفة الشجاعة والكرم والمروءة والنبل والصدق من أهم سمات المجتمع العربي في شبه الجزيرة العربية عبر العصور ، وامتدح الإسلام هذه الصفات واستحسنها وأبقاها ، فإذا ذكر العربي ذكرت هذه الصفات ، ومن يتبع أشعار العرب قبل الإسلام يلمس هذه الظاهرة الاجتماعية ، وتتجلى هذه الظاهرة فيما كان يسبغه الأبوان من حنان ومحبة على أبنائهم ، فأصبحت روح الوئام والوحدة هي السائدة بين أفراد الأسرة وأفراد القبيلة الواحدة ، وتحول ذلك بعد الإسلام إلى الوحدة الإسلامية .

وبتطور الأحداث داخل شبه الجزيرة العربية تطورت الحياة الاجتماعية منذ ظهور الإسلام إلى اليوم فظهر أثر الإسلام واضحاً في المجتمع العربي ، لكن الإسلام أبقى تلك العادات الاجتماعية الطيبة ومنها نظام المرضعة والحاضنة والمربية ، ثم وجد في بيوت العرب عامة و في منطقة الخليج خاصة ما يسمى بالمربي والجارية والعبيد والخصيان ومعلم الصبيان والقهرمانة وغيرهم .

لذلك أصبح الطفل في البيت متأثراً بهذه الفئات الوافدة عليه وأثرت في شخصيته وسلوكه سواء بالايجابية أو السلبية ، بل لعبت هذه الفئات دورها ليس بالنسبة للتأثير على الصغار فقط بل بالتأثير في الكبار أيضاً ، وبالتالي على قيم ومعتقدات المجتمع المحلي وسيتضح من خلال هذا العرض مدى هذا التأثير على المدى البعيد أو القريب . وما أدى إليه في النهاية .

فقبيل الإسلام في شبه الجزيرة العربية عرفت المرضعة والحاضنة والمربية واستعان العرب بهن لتربية أولادهم وقمن بدور هام في بيوت العرب في شبه الجزيرة العربية . وإذا ما تتبعنا الحياة الاجتماعية من قبيل الإسلام إلى مطلع العصور الحديثة لأدركنا ذلك التأثير ويتضح دوافع الاستعانة بهذه الفئات ، وإذا ما شرحنا أيضاً تلك الفئات التي استحدثت عبر العصور في شبه الجزيرة العربية بجانب المرضعة والمربية لأدركنا الشبه بين دور المربية في الأسرة العربية قديماً ودورها في العصور الإسلامية في الأسرة العربية والخليجية .

فقبيل الإسلام وجدت المرضعة والحاضنة والمربية ، فكان أشراف العرب يعهدون بأبنائهم إلى مرضعات يرضعنهم من مرضعات عربيات بدويات ، وفترة الرضاعة لاتتعدى عامين ، وخير مثال لذلك عندما ولد الرسول صلى الله عليه وسلم التمسوا له المراضع ، فأرضعته ثوبية مولاة أبي لهب أياماً ثم عهد في إرضاعه إلى مرضعة بدوية تسمى حليمة وهي من بني سعد بن بكر بن هوازن وفطم لعامين فردته حليمة إلى أمه وجده وهو ابن خمس سنين ، وتعلم صلى الله عليه وسلم من اقامته مع مرضعته وحاضنته لهجة بدوية عربية فصيحة لنشأته في ذلك الجو .

لذلك كان تأثير المربية في مرحلة الطفولة على الطفل واضحاً ، فلما كبر صلى الله عليه وسلم اعتاد أن يخرج مع إخوته في الرضاعة في رعاية الغنم وهو طفل في البادية وارتبط بهم شاباً وحباً وألفة ، ولما عاد صلى الله عليه وسلم إلى أمه جعلته أمه في حضانة أم أيمن وكانت مملوكة لأبيه إلى أن بلغ الست سنوات .

واتخذ العرب قبيل الإسلام العبيد ، وكان لعبد المطلب عبداً فكان إذا جلس بجوار الكعبة يجلس بنوه حول فراشه ، وإذا خرج قاموا على رأسه مع عبيده إجلالاً له ، كما كان لكل قبيلة عبيد خاصة بها ، وامتلك العرب الكثير منهم ، وكانت مهمتهم ليست الخدمة في البيوت فقط فالمنازل لاتعدو المدن الكبيرة كمكة والمدينة والطائف وبلاد اليمن والأطراف الشمالية لشبه الجزيرة العربية وبعض مناطق البحرين وساحل عمان ، أما في المواطن

الأخرى فكان دور الخدم يتعدى الخدمة في البيوت إلى أعمال أخرى .

فكان الخادم يساعد صاحبه في شئونه عامة ، فاستعان العرب بالرقيق للعمل في البيوت وخارج البيت وكانوا يشترونهم من سوق عكاظ الذي كانت ترد إليه الأطفال الذين يخطفونهم ليباعوا فيه لهذا الغرض ، ومثال ذلك زيد بن حارثة الذي خطفته خيل من بني المعين بن جسر من أمه عندما خرجت به لتزور قومها بني معين فساقوه إلى سوق عكاظ ، واشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة بنت خويلد بأربعمائة درهم وظل زيد في خدمة خديجة إلى أن تزوجت الرسول صلى الله عليه وسلم فوهبت له زيداً .

لم يتخذ العرب قبيل الإسلام ولا خلال عصر النبوة ولا عصر الخلفاء الراشدين مربيات يتولين تربية الأولاد كما هو معروف في وقتنا الحاضر ولكن أخذوا شكلاً آخراً ، فاتخذ العرب الأمة وهي الرقيق من النساء . تتولى الخدمة وشئون البيت ، وليس بمعنى المربية تقوم بدور الأم ، فترك للأم تربية أبنائها ، حتى أن الرسول صلى الله عليه وسلم نهى أن يذكر اسم « الأمة » بل إنه أمر المسلمين أن يكفوا عن ذلك وأن يقولوا « فتاي أو فتاتي » .

وظهر تطور واضح في ظل الإسلام بشأن العبيد ، فاعتنى بهم الإسلام ، فالإسلام لايستبيح الرق ، ولا أن يسترق مسلماً أبداً ، ولكن للرسول صلى الله عليه وسلم من يقوم في بيته بالخدمة مثال أم أيمن ، ولم يتخذها الرسول صلى الله عليه وسلم كرقيق ، بل خصها بكثير من العطف والرعاية فتأثرت بالحياة في بيت الرسول صلى الله عليه وسلم وتشربت من السنة النبوية ، فلما كان للرسول صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة مولى له زوجه أم أيمن ، تعبيراً عن محبة الرسول لزيد .

وحذا حذوه المسلمون فكان لعلي بن أبي طالب غلام يهتم به ويعطيه أحسن الملبس فيذكر أنه أعطى غلامه دراهم ليشتري بها ثوبين متفاوتي القيمة ، فلما أحضرهما أعطاه أرقهما نسيجاً وأغلاهما قيمة واحتفظ لنفسه بالثوب الآخر ، وبذلك عامل المسلمون المربين والمربيات والغلمان في بيوتهم معاملة طيبة ، أدي ذلك إلى أن العبد يقوم باسداء النصح لسيده ، وهذا دليل على تأثير العبد وغيره في الأسرة سواء بالطيب أو غير الطيب ، ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم ، العبد إذا نصح سيده ، وأحسن عبادة ربه كان له أجره مرتين .

والحقيقة أن الإسلام عمل كثيراً على إصلاح حالة الرق ، وأبقى حكم الأسير ، لكنه أمر بالرفق به ، فلما جيء بالأسرى بعد غزوة بدر فرقهم على أصحابه وقال : استوصوا بهم خيراً ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : شر الناس من أكل وحده ، ومنع رفده ، وضرب عبده ، ويذكر الماوردي (الأحكام السلطانية ص ٢٤٧) أن يأخذ السادة بحقوق العبيد والإماء وألا يكلفوهم من الأعمال ما لايطيقون .

لعبت المربية أو الخادمة أو العبد دورها في الحياة الاجتماعية عبر العصور ، فكان تأثير هذه العناصر في الأسرة واضحاً ومتميزاً ، وكان مصدر هؤلاء الغنيمة في الحروب بجانب أسواق عكاظ فكل ما أصابه المسلمون من عساكر أهل الشرك بالقتال فهو غنيمة وتشمل الأسرى والسبي فالأسرى هم الرجال المقاتلون من الكفار ، والسبى هم النساء والأطفال وهؤلاء لا مبرر لقتالهم وإنما يقسمون بين المسلمين ، وإذا كان النساء من غير أهل الذمة أو ممن ليس لهن كتاب كعبدة الأوثان ـ وامتنعن عن الإسلام يقتلن أو يسترققن ويجوز قبول الفدية عنهن .

كثر الرقيق في بيوت العرب خلال عصر النبوة والخلفاء الراشدين ، فكان مصدره الأسرى والسبي وجعل الإسلام الرفق بهم واجب فلا يجوز أن يفرق بين والدة ووالدها يقول الرسول صلى الله عليه وسلم « لا تُوَلَّه والدة عن ولدها ، وفي غزوة حنين لما هزم المسلمون هوازن سبيت نساؤهم فقدمت وفودها للرسول صلى الله عليه وسلم مسلمة وهو بالجعرانة وأرادوا أن يطلق الرسول سبيهم ولايسترقفن ، وكان الرسول قد مكث خمس سنوات فيهم ترضعه حليمة السعدية من هوازن وتربيه ، فقال وفد هوازن للرسول : يارسول الله لنا أهل وعشيرة ، وقد أصابنا البلاء ما لايخفى عليك فامنن علينا مَنَّ الله عليك وقالوا : إنما في الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتي كن يكفلنك وقال شاعرهم أبو صرد زهير بن صرد للرسول صلى الله عليه وسلم :

أمنن على نسوة قد كنت ترضعها ... إذ فوك يملؤه من محضها الدُررُ
الآن إذ كنت طفلاً كنت ترضعها ... وإذ تربيك ما تأتي وما تذر

وبذلك تأثر الرسول صلى الله عليه وسلم بمرضعته وبمربيته وفاء لها وأطلق سبى هوازن بعد أن أستأذن أصحابه .

وخلال العصر الأموي (٤١ ـ ١٣٢هـ) اقتنى الأمويون الجواري والقيان واتخذوا الجواري في البيوت وحذا حذوهم الناس ، ففي شبه الجزيرة العربية اتخذ العرب الجواري للقيام بمهام المربيات ، وكانت الحروب التي كانت بين المسلمين والروم سبباً في جلب كثير من الجواري واسترقاقهن .

ولم تكن الحروب وحدها مصدر الجواري والخدم في شبه الجزيرة العربية ، بل اعتبر الفقهاء أن العبد هو الشخص الذي حمل أسيراً في الحرب أو حمل عنوة من بلاد الأعداء ، بشرط أن يكون أخذ كافراً ، والولد الذي يولد من أمة مملوكة ، ويكون أبوه عبداً أو غير مالك لأمه ، وثالثاً الشخص الذي يؤخذ شراء .

فكان العرب يشترونهم من أسواق النخاسة للعمل في الخدمة في منازلهم ، لأن العرب كانوا يأففون العمل في مثل تلك الأعمال ، ذلك بجانب كثرة الأسرى خلال العصر الأموي لدرجة أن موسى بن نصير أسر ثلاثمائة ألف أسير من افريقية ، ارسل خمسهم إلى الخليفة الوليد بدمشق ووزع الباقي على المسلمين ، كما عاد موسى بن نصير إلى دمشق بقدر كبير من الأسرى الأندلسيين ، وبلغ من كثرة الرقيق خلال العصر الأموي أن الخليفة سليمان بن عبد الملك أعتق سبعين ألف مملوك ومملوكة ، وقدم عبيد بن عبد الرحمن القيسي والي افريقية من قبل هشام بن عبد الملك إلى دمشق ومعه عشرون ألف عبد ، وكان مصير هذه السبايا إما الخدمة في البيوت أو الاهداء أو البيع في شبه الجزيرة العربية .

انقسم المربون في البيوت إلى نوعين : (الخصيان والجواري)

أما الخصيان فقد شاع استخدامهم في البيوت العربية منذ عهد معاوية بن أبي سفيان ، وكان المسلمون يشترون الخصيان من اليهود والنصارى ، والإسلام أنكر الخصاء وحرمه ووكل للمحتسب أمر ذلك وهي عادات شرقية قديمة .

وللخصيان أغراض هامة ، فكان العرب يستخدمونهم في دور النساء غيرةً عليهن ، وحماية لهم ، ولذلك راجت تجارتهم وارتفعت أثمانهم ، وسمى الخصيان بالخدم خلال العصر العباسي ويطلق اسم الخادم على الرجال والنساء ، واشتهر هؤلاء الخصيان بالصبر مع طول الركوب كما اشتهروا بإجادة الرمي بالنشاب ، وكان للأمير عضد الدولة البويهي في القرن

الرابع الهجري خصيان يستخدمهم في بيته ، وكان له غلام خصي أسود يسمى شكراً يتمتع بثقته ، وكان مسئولاً على جميع أموره ، ولم يكن يسمح بأن يدخل إليه أحد إلا خادمه ، وهكذا تأثر الناس والأمراء بخصيانهم فخصوهم بالاهتمام والعناية .

وبالنسبة للجواري فقد شاع إستخدامهن في البيوت في شبه الجزيرة العربية وقال عنهم عمر بن الخطاب « ليس قوم أكيس من أولاد السرارى ، والمقصود هنا بأولاد السراري أي أولاد السرية التي تنجب ابناً من العربي ، وقال عنهم عمر .. إنهم يجمعون عز العرب ودهاء العجم .

وكان الخدم بنوعيه يقوم بالخدمة بجانب دور المعاونة لربة البيت وفي المشاركة في التربية في العصر الأموي لكثرتهم ، يقول ابن خلدون أن الأمويين لما جاءهم الترف وغلب عليهم الرفه بما حصل لهم من غنائم الأمم صاروا إلى نضارة العيش ورقة الحاشية باتخاذهم الجواري والمربين في البيوت ، كما اقتنوا القيان ، وسيروا الجواري إلى الحجاز وصاروا موالي للعرب .

اتخذ الناس عامة في الخليج وفي شبه الجزيرة العربية الرقيق والجواري في بيوتهم ، واتخذ الخلفاء خاصة الإماء من غير العرب لأنهن كن أوفر جمالاً ، والإماء كن يجلبن من أسواق النخاسة من جميع الانحاء ، فمنهن الحبشيات والروميات والجرجيات والشركسيات ، واشتهر كثير منهن بالجمال وعذوبة اللفظ وجمال الصوت .

والحقيقة أنه لم يكن بيع الرقيق مظهراً من مظاهر العبودية والاسترقاق بالمعنى المعروف ، بل ان كثيراً من الإماء كن يأتين سوق النخاسة مختارات ليتمتعن بحياة الترف والنعيم في بيوت العرب والأمراء والخلفاء ، وامتاز الإماء بحسن الخدمة في البيوت ، يقول عنهن الجاحظ : من أراد قلة المؤونة ، وخفة وحسن الخدمة ، وارتفاع الحشمة فعليه بالإماء دون الحرائر .

وكان أهل المدينة يكرهون الإماء ، ولايتخذونهم في بيوتهم ، ومن أمثال العرب « لاتمازح أمة ولاتبك على أكمه » لكن العربي فرق بين الحرائر والجواري في شئون الخدمة في البيت ، فكانوا يقولون : الجواري كخبز السوق ، والحرائر كخبز الدار .

ونظراً لكثرة الجواري خلال العصر الأموي أن كثيراً من الخلفاء وكانت أمهم أمه ، مثل إبراهيم ويزيد ابن الخليفة الوليد بن عبد الملك ، وقال ابن بطلان وهو من كتاب منتصف القرن الخامس الهجري : أن انتشار الجواري الروميات في البيوت وفي القصور لكونهم بيض شقر ، سباط الشعور ، زرق العيون ، وهم عبيد طاعة ، وموافقة وخدمة ووفاء وأمانة ومحافظة .

كما كان النساء النوبيات في بيوت العرب منذ صدر الإسلام وكانوا يجلبون إلى دور كبار رجال الدولة والأمراء والاغنياء العرب وخاصة في الخليج العربي ، فقد عمرت أسواق عمان بهم ، وكان يدفع للنوبي منهم ما بين ٢٥ إلى ٣٠ ديناراً ، ولما اشترى الوزير الصاحب بن عباد في القرن الرابع الهجري عبداً نوبياً بأربعمائة دينار استكثر الناس هذا الثمن .

وكانت جنوب شبه الجزيرة العربية من أكبر أسواق الرقيق الأسود ، وكان ثمن العبد سواء إمرأة أو رجلاً في منتصف القرن الثاني للهجرة مائتي درهماً . واستعمل العرب العبيد السودانيين ، وكانوا يسمون عبيد البيوت ، وكانوا بجانب الأصناف الأخرى ، وقد ورد في وصف كل جنس من أجناس أولئك الخدم والمربين ما يعبر عن اهتمام الناس بهم . وصفهم ابن بطلان بقوله :

البربريات : مطبوعات على الطاعة ، نشيطات للخدمة .
الهنديات : يصلحن لحفظ النفس والأموال .
الزنجيات : الغالب عليهن سوء الأخلاق وكثرة الهرب . ويقول عنه : أن الزنجيات إذا شبعن صب عليهن العذاب صباً فلا تتألمن .
الحبشيات : يصلحن للائتمان على النفس .
النوبيات : تميزن بقوة الجسم وضعف النفس .
البجه : (بين الحبشة والنوبة) يمتازون بالشجاعة والسرقة ، فلا يؤمنون على الأموال .
الروميات : عبيد طاعة وموافقة وخدمة ووفاء وأمانة .

الأرمنيات : اشتهرن بالسرقة ، فهي فيهن فاشية ، وقل ما يوجد فيهن بخل ، وفيهن غلظ طبع ولفظ ، وهن عبيد كد وخدمة ، فمتى تركت العبد ساعة بغير سؤال لم يدعه خاطره إلى خير ، ولايصلحون إلا بالعصا ، والواحدة منهن إذا رأيتها كسلانة فليس ذلك عن عجز قوة ، بل دونك والعصا .. وهذا الصنف غير مأمون عند الرضا فضلاً عن الغضب .

ويقول ابن بطلان : أن الأرمن أشر البيض ، والزنج أشر السود ، وما أشبه بعضهم ببعض في قوة الأجسام ، وكثرة الفساد وغلظ الأكباد ، والعبيد البيض أغلى من غيرهن ، وثمنها ألف دينار ، لكن اشتهر خلال ذلك العصر نساء النوبيات بالجمال الفائق .

وخلال العصور العباسية ، كثرت أسواق الجواري والعبيد ، فكان الزنوج يجلبون من سواحل إفريقية الشرقية ، وكان للبيض نساء من السود ، كما كان هناك أسواق في كل مدينة كبيرة للرقيق ، وفيها سوق كبيرة فيها حجرات يسكنها الرقيق المعروض للبيع وهذا يسمى بالرقيق الشعبي ووجدت هذه الأسواق في عمان بمنطقة الخليج .

أما الرقيق الخاص الممتاز فيعرضه التجار على الأمراء والأغنياء ، أو يعرضونه في بيوتهم الخاصة ، وكانوا أصنافاً من نساء وفتيان ورجال ، وكان هذا النوع يهتم به كبار رجال الدولة والخلفاء والأمراء والأغنياء من العرب .

وكانت مدينة سمرقند تشتهر كسوق للرقيق ، فهي بنية صالحة للتربية ، فكان الرقيق المجلوب من بلاد ما وراء النهر يرد إليها ، كما كانت هناك سوق للرقيق في مدينة سامرا في منتصف القرن الثالث الهجري ، لكن رقيق سمرقند فاق رقيق سامرا فيقول ابن بطلان : خير رقيق ما وراء النهر ما كان من تربية سمرقند ، وفي أهل سمرقند جمال ولهم حسن تعهد ، وأهلها يتخذون من ذلك صناعة لهم يعيشون منها ، وكان يأتي إلى سمرقند أيضاً رقيق تركستان والبلغار وسوق شرق أوروبا ويخترق المانيا إلى الأندلس إلى موانىء إيطاليا وفرنسا إلى الشرق وهذا هو الصنف الأبيض ، أما الصنف الأسود فكان يجلب من السودان والحبشة والنوبة ، وكان بيع الرقيق الجيد في السوق العام بمثابة عقوبة تحط من قدره .

وكان بمدينة بغداد أماكن لبيع الرقيق أيضاً ـ فكان الرقيق الصقلبي والرومي والزنجي والتركي يوجد ببغداد ، ولهم شارع خاص أطلق عليه شارع دار الرقيق ، وموضع آخر سمي باب النخاسين .

كما كانت الخادمات ترد من مصر وشمال افريقيه ، وشمال شبه الجزيرة العربية وجلب إلى شبه الجزيرة العربية الزنوج خصيصاً لحراسة الدور ، وكانت كل تلك الأسواق تمون البيوت العربية في الخليج وفي سائر شبه الجزيرة العربية . وكان لكثرة الرقيق أن كونوا طبقة اجتماعية خاصة بهم في سائر المدن والأماكن التي يقيمون فيها .

وفي غمرة الأحداث السياسية المضطربة عبر العصور الإسلامية ، وجد من بين المسلمين من يقومون بسلعة الرقيق ، فشرارهم يعتبرون من خالفهم في المذهب أو العقيدة أهلاً للحرمان من الحقوق الشرعية ، ومثال ذلك قرامطة البحرين الذين عظم شأنهم في منتصف القرن الرابع الهجري ، فقد أحلوا استرقاق من يقع في أيديهم من الأسرى ، فصار الكثير من الآمنين المسالمين من أهل الشام وجزيرة العرب والعراق أرقاء في أيديهم ، ففي سنة ٣١٢هـ ـ ٩٢٤م اعترض قرامطة البحرين قافلة للحجاج وأسروا من الرجال ألفين ، ومن النساء نحو الخمسمائة ، وساروا بهم إلى هجر وباعوهم كرقيق .

وبجانب ذلك وجد الوصي أي الذي يقوم بتربية أبناء الخلفاء وكبار رجال الدولة فكان الوصي على الخليفة الحاكم في صغره خصياً أبيضاً ، يدير شئون الدولة ، وكان هذا الخصي مولعاً بالعبث واللعب بالطير ، فتأثر الحاكم به .

وكان الصولي مربياً للخليفة العباسي الراضي بالله وأخيه هارون ، فكان يلقاهما مرتين في الأسبوع وحبب العلم إليهما وانعكس دوره عليهم فكان الراضي من الخلفاء العباسيين النابهين العلماء ، وهكذا يتضح دور المربي إذا كان عالماً ينعكس علمه على مربيه وإن كان ولعاً بالعبث انعكس ذلك على مربيه .

كما كان هناك المعلمون الذين يؤدبون الأولاد في البيوت الغنية ، وكان رزقه في الشهر سبعون ديناراً في القرن الثالث الهجري ، ويظل هذا المؤدب تحت إشراف من اختاره ، وهو الذي يقدر رزقه ، ويبدل بغيره إذا لم يعجبه ، ومؤدبوا الأمراء أحسن المؤدبين حالاً ، وكان الذين يختارون لتأديب أبناء الأمراء علماء اللغة المشهورون .

وكان يلازم الخليفة المأمون غلام لمعلمه ، فكان إذا احتاج المأمون إلى محو لوحة بادر إليه فأخذ اللوح من يده ، وغلب على غلمان المأمون فمسحه وجاء به فوضعه على المنديل في حجره .

ويذكر الماوردي (الأحكام السلطانية) أن للمعلمين من الطرائق التي ينشأ الصغار فيها ما يكون نقلهم عنها بعد الكبر عسيراً ، فيقر منهم من توفر عمله ، وحسنت طريقته ويمنع من قصر وأساء من التصدي لما يفسد به النفوس وتخبث به الآداب ، وإذا كان المربي فاسداً يترتب عليه القضاء على الدولة فالذي قتل الخليفة الحاكم هو أحد الخدم فضربه بسكين في عنقه ، وهو في بستان وأثخنه آخرون منهم بالخناجر .

كما وجد في البيوت ـ وخاصة الأغنياء من الناس ـ ما يسمى بالقهرمانة ، وكان لكل بيت قهرمانتان احداهما للخليفة والأخرى للسيدة والدته ، ويتولون تربية وتنشئة الأمراء نشأة قوامها الصلاح والعلم ، وتوجههم وجهة صالحة للالمام بنظم الحكم ، والوقوف على أحوال الدولة وعلاقتها بغيرها من الدول ، فإذا ما أرادت القهرمانة ضعف الأمير فتهمل شأنه حتى يسهل عليهن السيطرة عليه .

من ذلك العرض يتضح دور كل من المرضعة والمربية والمربي والخادم والجارية والوصي والمؤدب والمعلم والقهرمانة في بيت العرب خلال العصر الإسلامي فإذا صلح هؤلاء صلح الصبي وإذا فسد المربي فسدت التربية واختلت الدولة .

أهم المصادر والمراجع

١ ـ ابن الأثير : الكامل في التاريخ ـ ١٢ جزء

٢ ـ آدم متز : الحضارة الإسلامية ـ جزءان

٣ ـ أحمد أمين : ظهر الإسلام

٤ ـ البغدادي : تاريخ بغداد

٥ ـ البيهقي : المحاسن والمساوىء .

٦ ـ ابن بطلان : رسالته في الرقيق .

٧ ـ الثعالبي : يتيمة الدهر .

٨ ـ الجاحظ : الحيوان

٩ ـ الجاحظ : المحاسن والاضداد .

١٠ ـ ابن الجوزي : المنتظم في تاريخ الأمم

١١ ـ ابن حوقل : صورة الأرض .

١٢ ـ حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي والديني ـ ٤ أجزاء

١٣ ـ الخوارزمي : رسائل الخوارزمي .

١٤ ـ ابن خلدون : المقدمة

١٥ ـ الأصطخري : المسالك والممالك .

١٦ ـ الماوردي : الأحكام السلطانية .

١٧ ـ المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر

١٨ ـ المقدسي : أحسن التقاسيم لمعرفة الأقاليم .

١٩ ـ المقريزي : الخطط والآثار .

٢٠ ـ ياقوت : الارشاد .

٢١ ـ اليعقوبي : تاريخ البلدان .

نصيحـــــة .. ؟

قال الشافعي رضي الله عنه :

«حق على طلبة العلم بلوغ غاية جهدهم في الاستكثار من علمه، والصبر على كل عارض دون طلبه والرغبة إلى الله تعالى في العون عليه».

(تذكرة السامع : ٢٧)